الاعتراف بتوبة

الارشمندريت
جورج كبساني

١٩٩١

الاعتراف بتوبة

مع تطرّق الى اعتراف الشباب

(منقول عن تسجيل لعظة لرئيس دير القديس غريغوريوس في جبل آثوس، أُلقي في ٦ آذار ١٩٨٧ وهو الأرشمندريت جاورجيوس (جورج) وقد كان عضواً في معهد اللاهوت في جامعة سالونيك).

أحبائي في المسيح، إنني افرح اذ مُنحت لي الفرصة في هذا المساء لكي نجتمع سوية في المسيح، ونبحث ونفكر في موضوع هام لنا ولأولادنا الذين نحمل تجاههم مسؤولية كبيرة.

لا أريد أن اطرح عليكم أموراً تعرفونها، ولكن فقط مما هو في خبرتي القليلة واعتبره هاماً. نعلم جميعاً أن التوبة كانت مضمون بشارة القديس السابق المعمدان: "توبوا فقد اقترب ملكوت السموات" وأيضاً كانت بداية ومضمون بشارة المخلص: "ومن ذلك الحين بدأ يسوع يبشر قائلاً: توبوا فقد اقترب ملكوت السموات" وذلك حسب بشارة متى الانجيلي وفي مرقس "توبوا وآمنوا بالانجيل". فالذي يؤهل الانسان لاقتبال ملكوت الله وانجيل الرب هو التوبة. التوبة ليست شيئاً آنياً بل هي انجذاب قوي نحو الله، لذلك لا يقول توبوا بالمعنى الاني اللحظي للفعل بل توبوا (دوما) / اذ إنه يوجد فرق بين لفظي الفعلين بحسب المعنى في اللغة اليونانية.

لكي يستطيع الانسان المسيحي أن يقتبل المسيح وانجيله ينبغي أن يعيش في حالة توبة مستمرة. لذلك فالتوبة بالنسبة لنا نحن الأورثوذكسيين هي موقف حياة لذلك نتكلم عن حياة التوبة ليس فقط لحظات توبة. هنا اريد ان اذكركم بالفرق بيننا وبين البروتستانت وايضاً بين كل اولئك "الانجيليين" و "الخمسينيين" الذين طرحوا حديثا الكثير من التهجمات ضد الشعب الاورثوذكسي والذين يعتقدون بأنه كلما يتوب انسان ويقبل بيسوع المسيح مخلصاً له شخصياً، فهو مخلصاً ومبرراً.

بالنسبة لايماننا الاورثوذكسي وتقوانا، التوبة هي موضوع جهاد الى نهاية الحياة، الى آخر نَفَس. شوق المسيحي هو ان يقتني "قلباً متخشعاً مومتواضعاً" من التوبة. ونميز في حياة الآباء القديسين ان قديسينا، مع انهم اقتربوا كثيراً من الله فقد كان لديهم باستمرار روح التوبة.

نرى آباء قد انحلوا في النسك والتوبة، وعندما تصل آخر ساعة حياتهم يقولون: "يا رب اتركني أعيش قليلاً لكي اتوب" ، بينما هم لا يفعلوا شيئاً اخر في حياتهم إلا البكاء والتوبة. وايضاً في

عبادة كنيستنا، في نصوصها المقدسة، في التسابيح وفي الصلوات، نجد ان الكتّاب المقدّسين يضعون التوبة كشرط ضروري للحياة المسيحية.

نرتل في القانون الكبير: "أخطأنا وأثمنا وظلمنا أمامك. . " وفي القداس الالهي، يقدم الكاهن القرابين "من أجل خطايانا وجهالات الشعب". اذن فموقف الانسان المسيحي امام الله هو دوماً موقف توبة.

الانسان التائب يتألم ويعرف ان طريقه خاطئاً وانه خالف ربّه وخالقه، انه أحزنه، ويطلب بصدق ان يترك طريقه هذا، الذي هو خاطئ وان يتبنى طريق ربه. بتوبته يعرف ان الخطيئة ليست الحالة الطبيعية، بل هي مخالفة لها، وانها ليست صحية بل مرض، وانه بالخطيئة ينفصل عن الله وعن الكنيسة، وفي النهاية يعمل ارادة الشيطان. علامة التوبة الصادقة هو أيضاً الاعتراف بالخطايا امام الله وامام خدامها وهذا يشترط تواضعاً. بدون تواضع حقيقي لا توجد توبة.

لا يتميز الاعتراف من خلال التوبة والتواضع بل فقط عندما يتم امام الله والكنيسة. لانه في الكثير من الاحيان نشعر بالحاجة لكي نقول خطايانا لاشخاص نثق بهم أو للطبيب النفسي. ولكن هذا الاعتراف لا يتم امام الله. الاعتراف الذي نكشف به خطايانا امام الله والكنيسة هو فقط الذي يتأسس على تواضع حقيقي. لا يمكننا مطلقاً ان نفصل الله عن الكنيسة.

بواسطة الاعتراف في الكنيسة وامام خادمها المعرَّف، يتواضع الانسان حقيقة. يقبل بان خطيئته ليست امراً شخصياً أو شيئاً يتعلق به وحده أو يتعلق به مع الله فقط، بل يخص الله والكنيسة، وانه يتوجب عليه ان يطيع الكنيسة والروابط التي تربطه بها.

البعض يقولون: "ما الحاجة لكي اذهب للاعتراف امام الكاهن؟ اقولها لله مباشرة". ولكن من اللحظة التي نقبل فيها انه بواسطة الكاهن سيغفر لنا، يحل تواضعاً في في نفسنا، نطيع المسيح والكنيسة اللذان يريدان ان تمنح مغفرة الخطايا بواسطة الكهنة وليس من خلال علاقة شخصية مع الله، كما يفعل البروتستانت.

هكذا نقتبل الخلاص الكنسي وليس الفردي، أي اننا لا نخلص كأفراد، بل داخل جسد المسيح الذي هو الكنيسة. نقبل ان الله بواسطة كنيسته يسامحنا ويشفينا، وان الخطيئى تشفى عندما تُكشَف للطبيب، وانه لا يستطيع الانسان وحده ان ينجو، وان خادم الكنيسة، مع كونه انساناً يحمل ضعفاً، الا انه يستطيع ان يساعد المؤمن لكي يسامح ويجد طريقه نحو الله.

أعتقد ان كل هذا يسبقه تواضعاً، وان الانسان الذي سيقبل بهذا كله يتواضع، وبالتالي يقوم بخطوة كبيرة وتصميمية في حياته المسيحية. وهو يتضمن تجاوزنا للأنا وللتمحور حول الذات

والاكتفاء بها، الذي هو موت للحياة الروحية. الانسان الذي يعتقد مكتفياً بذاته فقط لا يستطيع ان يتحد حقيقة مع الله أو مع الكنيسة فمركزه هو ذاته وليس الله. هكذا اذاا فبالاعتراف يحقق ضربة قوية ضد الاكتفاء بالذات وتمركز الانسان حول نفسه وضد الانانية. لذلك لا يعد مبالغة ان نقول ان الحياة المسيحية الحقيقية تبدأ اللحظة التي يبدأ فيها الانسان المسيحي ان يعترف بتوبة.

من هنا يبدأ في ان يتواضع حقيقة، ومن ذلك الحين يبدأ بالحصول على علاقة حقيقية وشركة مع الله وأخوته داخل جسد المسيح كنيستنا المقدسة. لذلك فالاعتراف بتوبة ليس امراً مساعداً فقط بالنسبة للمسيحيين، بل هو شرط من الشروط التي لابد منها لخلاصنا.

الذين اعتمدوا من يوحنا المعمدان في برية الاردن، كانوا يعترفون بخطاياهم، الابن الشاطر اعترف امام ابيه بعد عودته، العشار أيضاً اعترف بتوبة. اما الرب فقد اعطى الرسل القديسين وبواسطتهم لخلفائهم، سلطان – الربط والحل – لخطايا الشعب.

الكنيسة كانت تقبل التائبين بواسطة الاعتراف والتوبة دائماً. وطبعاًكان استرجاع التائبين واجباً وحقاً للاساقفة فقط، الذين كانوا يستدعون الكهنة المناسبين لمساعدتهم، وكانوا يرسمونهم آباء روحيين. في الاديار المقدسة والشركات الرهبانية، التي فيها يستهدف كمال الحياة المسيحية يسعون باهتمام خاص لكي يتم الاعتراف للرئيس يومياً ان امكن، بحيث لا يكون للراهب أي شئ يفصله عن الله أو عن رئيسه أو عن اخويته. وهذا ايضاً نموذج للمعنى الذي تمنحه الكنيسة لسر الاعتراف بتوبة. الاعتراف بتوبة يخلص الانسان، ولكن ايضاً يريحه، يريحه لانه يحرره من ثقل القلق. فالخطيئة تخلق قلقاً يعذب الانسان حتى لو حاولنا ان نخفي انفسنا قدر ما نشاء.

ونعرف اليوم من علم النفس الحالي، كم هي محزنة ومؤلمة نتائج القلق داخل الانسان، وكم تعذبه، وذلك عندما لا يطرح قلقه امام الله لكي يغفر له. ومن ثم وبواسطة سر التوبة يتبين للانسان عظم محبة الله للانسان، المحبة المطلقة والمسامحة. انها لحظة يشعر بها كل من الانسان الخاطئ الذي يعترف والاب الروحي الوعَّرف، وبتأثر يحسّان بعظم محبة الله للانسان وكيف انه من عمق سقطته وخطيئته الرهيبة يحتضنه الآب السماوي ويقدم له خاتم التبني ويذبح من اجله العجل المسمن.

يقول كاهن اورثوذكسي معاصر: "لا يوجد وقت يكون فيه الانسان محبوباً لدى الله كما عندما يعترف بتوبة". وهذا امر يشعر به الانسان الخاطئ وكذلك الاب الروحي ويفرحان. لذلك في الاعتراف لا يستفيد فقط المعترف، بل المعَّرف أيضاً، لانه يجد في كل اعتراف فرصة من الله كي يجدد ذاته امامه.

يساعد الاعتراف ايضاً لكي ينفتح المعترف، وربما لاول مرة في حياته امام شخص يستحق ثقته. وهذا عشناه فعلاً، ففي كثير من الاحيان يأتي أناس معذبون بسبب فكر شغلهم سنوات و لم يجرؤوا ان يبوحوا به لاحد من الناس مطلقاً. وهذا يعذبهم ويجعل حياتهم استشهاد. وها تأتي ساعة ينفتحون فيها امام الله وامام الاب الروحي، لانهم يثقون بان هذا الاب الروحي هو الانسان الوحيد الذي يستطيع ان يسمعهم ويمكنهم ان يقولوا له ما لا يستطيعون ان يقولوه لاحد سواه. وأحياناً قد لا تكون لديهم الجرأة ان يعترفوا به حتى لانفسهم.

وتصوروا، بعد اعتراف كهذا، كم هي الراحة التي تحل في نفس الانسان. الاعتراف يساعد الانسان الخاطئ أيضاً كي يعيش الكنيسة كجسد المسيح وكشركة اشخاص في المسيح وليس كمؤسسة للخلاص بطريقة قانونية، كما يرى الغربيون سر الكنيسة، فبواسطة الاعتراف تقوم علاقة روحية بين الانسان والاب الروحي، وربما تكون هذه المرة الاولى التي تقوم فيها علاقة بينه وبين احد اشخاص الكنيسة.

بالنسبة لنا ليس الاعتراف محاكمة كما هو الحال عند الغربيين، ولذلك فنحن لا نعترف داخل غرف الاعتراف التي يعترف فيها الغربيون دون ان يراهم الاب الروحي. فهذا لا معنى له في لاهوتنا، لأنه يعين على القضاء على العلاقة الشخصية بين المؤمنين، التي تظهر وبشكل خاص من خلال الاعتراف. الاب الروحي هو الاب، هو الاخ، الذي يقتبل ويحب الاخ، يتألم معه، يفرح معه، وهذا ما نراه في حياة الآباء والرؤساء الروحيين القديسين في كنيستنا.

فأحد هؤلاء الآباء، شيخ وغير متعلم، كان يعَّرف في احدى كنائس اثينا، قال مرة: "يأتي الى هنا اناس لديهم آلام كبيرة. يبكون وانا ليس لدي شئ اقوله لهم، هم يبكون وانا ابكي معهم". وما الذي يريده انسان متألم اكثر من هذا ؟ ان يذهب الى الاب الروحي، وان يبكي الاب الروحي معه.

"ابك مع الباكين وافرح مع الفرحن"

الاعتراف يساعد المعترف ايضاً كي يجد ابا على صورة الآب السماوي، لكي لا يشعر انه يتيم روحياً في هذا العالم. انظروا ماذا يقول الرسول العظيم بولس: "لانه لو كان لكم ربوة من المؤدبين في المسيح ليس لكم آباء كثيرون لاني انا ولدتكم في المسيح يسوع بالانجيل". (١ كو: ١٥). ينبغي ان يلدنا احد روحيا داخل الكنيسة. وهذه العلاقة بين الاب الروحي والنعترف هي خلاص للمسيحي.

منذ سنوات، كاتب وجودي فرنسي أصبح أورثوذكسياً. وفي احدى الكلمات التي القاها وشرح فيها الاسباب التي دعته ليصبح اورثوذكسياً قال فيها من بين ما قال: "نحن في الغرب أضعنا

الاب. ليس لدينا اب، وهو السبب الذي دعاني لاصبح اورثوذكسياً، لانه في الكنيسة الاورثوذكسية وجدت أباً".

اذا، فواحدة من البركات الكثيرة في حياتنا هي ان نجد ابا، يقودنا نحو الله ونحن نقدم له قلبنا بتواضع. وهو بدوره وبتواضع أيضاً وبنعمة المسيح يقودنا نحو الله. ومن منكم واتاه هذا الحظ مثل هذا الاب يفهم ماذا اقول. ومن منكم لم يجد، فالفراغ الموجود داخله يشير الى ضرورة وجود اب روحي في يحياتنا. الامر الذي هو ضروري ليس فقط للرهبان بل أيضاً للمسيحيين في العالم.

الاعتراف يريح الانسان، لانه يساعده لكي يتجاوز الدينونة قبل الدينونة. ان حياة الانسان الممنوحة من الله، لابد ان يأتي وقت وتقف فيه امام الله. يقول لنا الاباء القديسون والاباء معلمي الكنيسة، ان الانسان الذي يقدم ذاته في الاعتراف امام الله يدان قبل الدينونة. لذلك فعندما يذهب احد للاعتراف يشعر بخوف وخجل وصعوبة في الاعتراف، لانه يشعر انه يقف امام منبر الله.

ولكن اذ يدان الانسان هكذا قبل الدينونة فهو يتحرر من ثقل الخطيئة. وهكذا يستطيع ان يشعر بالسلام والرجاء انه سيمثل امام منبر الدينونة متحرراً من هذا الثقل، الذي كان سيشعر به لو لم يعترف به. لذلك فالشيطان مجرب الانسان والعدو والمقاوم له في خلاصه، يضع لنا جما من العقبات لكي لا نعترف، لان الاعتراف يساعدنا كثيراً.

يقول القديس غريغوريوس بالاماس في مكان ما (اذا كنت اتذكر جيداً) ان الانسان الذي يعترف بتوبة يعتبر الله له الخطايا التي بمعرفة انها ليست بمعرفة. فما اعظم محبة الله للبشر. بواسطة سر التوبة يجعل الله نعمته لخطيئتنا على الارض، بحيث انها لا ترافقنا الى الحياة الابدية. لاننا اذ لم نعترف بخطيئتنا سترافقنا الى الابدية بينما اذا اعترفنا بها فهي ستغفر وسيرافقنا فقط الصلاح الذي عملناه وليس الشر.

فيا من تعزية كبيرة ويا له من رحاء . . ، علينا ان نعرف نحن جميعاً الذين نخطئ يومياً ان الله بدافع المحبة يمحو الشر الذي نعمله اذا تبنا بصدق، ويترك الصلاح فقط كي يرافقنا.

حقيقة، كم هي محبة الله الابوية وتنازله من اجل الانسان . . . وتأكيداً الى ان الشر ينتهي بعد الاعتراف ولا يرافقنا بعد، نجد ان المصابين بالجنون يكشفون خطايا الناس الذين لم يعترفوا، بينما لا يكشفون ابداً خطايا الذين اعترفوا. وربما تعلمون الحادث الذي يذكره الاب غفرئيل الديونيسي الدائم الذكر، من ان احد المجانين كشف امام الجميع خطايا احد الاخوة الذي لم يكن يعترف. ولكن بمجرد ان هذا الاخ ذهب الى الاب الروحي واعترف، اخذ الشيطان بواسطة المجنون يشتم الاب

الروحي قائلاً: "الاب محاها كلها". وقد حدث هذا في حالات اخرى ايضاً. وهذا دليل علـــى ان الله يمحي حقيقة خطايا الناس بواسطة الاعتراف بتوبة.

وبواسطة سر التوبة والاعتراف، الكنيسة تقدم خدمات قيمة للانـــسان، وعلـــى الاخـــص الانسان المعاصر اذ تصالح الانسان مع الله ومع اخيه الانسان ومع نفسه. ان سر التوبة هو حقيقة سر سلام البشر . فلو استطعنا ان نرى آلاف البشر الذين يعترفون لدى الاباء الروحيين، كيف يـــدخلون الى الاعتراف وكيف يخرجون، وكم هو سلام الله الذي يحل في نفوسهم، سنتأكد ان الكنيسة هـــي اعظم قوة للسلام في العالم، دون أية ضجة أو استعراض لعملها الروحي.

لا يوجد أب روحي عندما يأتيه أحد من اجل الاعتراف ولا يسأله: "هل لك ســـلام مـــع الاخرين ؟ هل تحب الجميع ؟ اعنك شر ما، أو فتور ، أو تذمر، أو شئ ما يفصلك عن اقربائـــك او جيرانك او اصدقائك او الناس الذين هم حولك؟". وفي اغلب الحالات سيوجد شئ مـــا والانـــسان سيحصل على نعمة وقوة وتوجيه لكي يعبر محنته ويشعر بالسلام ويسامح، ويتقدم في حالة سلامية مه نفسه.

بواسطة سر التوبة ، الكنيسة تقود المسيحي الى الحرية في المسيح، لان الانسان عندما يتحرر من الخطيئة وحب الذات يتحرر من الضرورة الطبيعية للاهواء الدنيئة ويتقدم في مجال آخر للحرية في المسيح الذي هو الحرية الحقيقية. بهذا السر الكنيسة تعزي الناس، بحسب وصية الله على لسان الـــنبي: "عزّوا ، عزّوا شعبي" (اشعياء ٤٠ : ١) . عمل الكنيسة الرعائي لا يبتغي ان يقود الناس للتوبة فقط، بل ان يثبتهم ايضاً ويعزيهم عندما يتألمون بسبب حالتهم الخاطئة أو بسبب تجاربهم. فكمـــا ينفـــتح الانسان المتألم للاب الروحي، فهو يقتبل التعزية من الله بواسطة الاب الروحي. وايضاً هـــذا الـــسر يساعد الانسان كي يتجاوز ويواجه حالات رهيبة لا مخرج لها، مثل الانتحـــار والمآســـي العائليـــة والامراض التي لا شفاء لها. ففي سر التوبة لا يفعل الانسان فقط ولا الله فقط، بل خدمة هذا الـــسر هي الهية بشرية، كما هو الحال في كل كيان الكنيسة وكل الرعاية الاورثوذكسية.

الاب الروحي لا يفعل شيئاً لوحده، بقواه الذاتية، لانه عندما سيعتمد على خبرتـــه فقـــط ومعرفته ومقدرته النفسية سيفشل. فموقف الكاهن امام الانسان مركزه الانسان، ســـيحدر النعمـــة الالهية. الاب الروحي يقدم كل ما يستطيعه بشرياً ولكن الله سينهي والله سينعم. وعندما يشعر الاب الروحي ضميرياً بعدم مقدرته، فان الله سيمنح نعمته، وسيفعل الروح القدس في الاعتراف. يـــساهم الاعتراف ايضاً في الصحة الجسدية للناس من خلال السلام الداخلي والتوازن. لدينا أمثلة على امراض سرطان، كانت في مراحلها الاخيرة، وبعد اعتراف صادق تم شفاؤها.

الأب جاورجيوس كاهن المستشفى الخاص بالامراض السرطانية في اثينا، يذكر حـــالات في الامراض السرطانية في مراحلها الاخيرة، تم شفاؤها بعد اعتراف صادق.

خاتمة:

هكذا نرى البركات والراحة التي يمنحها هذا السر لنفوسنا فتتذكر قول الرب "ان ملكـــوت الله لا يأتي بمراقبة". كثيرون لديهم الانطباع بأن كهنتنا لا يفعلون شيئاً، الكنيسة لا تقدم شيئاً هاماً. انهم لا يعرفون ماذا يحدث في الاعترافات ولا يعرفون شيئاً في جهاد الاباء الروحيين، عن مشاركتهم في آلام الناس.

يا أخوة، أقول لكم، انه لا يوجد لدى الكاهن عمل أكثر تعباً من عمل الاعتراف، لانـــه لا يستطيع ان يعرِّف وهو من علو ينبغي ان يعيش مع الانسان، ان يتألم معه، ان يشعر بحالته الخاطئة ان يجعل مشكلة الانسان مشكلته هو. لذلك فكثير من الاباء الروحيين أصيبوا بوعكـــات في صـــحتهم بسبب تقدمتهم هذه وتضحيتهم في سر التوبة، كما حدث لكاهن راحل، كان ابا روحياً لـــسنوات كثيرة، ومن كثرة ما كان يعِّرف باستمرار وخلال ساعات الليل، أصيب بأوجاع دائمـــة في رأســـه عذبته طول حياته. نفهم اذا من كل هذه الامور ، ومما تعرفونه انتم من خبراتكم، كم هو ضـــروري سر التوبة لنا جميعاً.

سأقول أولاً لنا، ومن ثم لاولادنا. لانه اذا لم نكن نحن في حالة صحيحة امـــام الله كيـــف سنساعد اولادنا ان يكونوا في حالة صحيحة امامه؟

إن أول من ينبغي عليه ان يعترف هم الاباء الروحيون. الكهنة واللاهوتيون. نحن ينبغـــي ان نكون الاوائل في سر التوبة لكي يمنحنا الله نعمته. فاذا لم تكن لدينا خبرة شخصية، فمـــاذا ســـنقول للاخرين؟ صحيح ما قيل بأن أفضل أب روحي هو أفضل من يعترف.

***

صعوبات الابناء في الاعتراف

ولكن توجد بعض الصعوبات امامابنائنا في تقدمهم الى سر التوبة حاليـــاً. الـــشباب اليـــوم يستصعبون بشكل عام الاقتراب من الكنيسة ومن الكهنة ، لانه يسود تشويه للكنيسة ناتج عن سوء فهم. فالكنيسة اليوم يُستهزأ بها، يُنّم عليها، تُهان امام عيون العالم وعيون الشبيبة، والـــشبان الـــذين سيعبّرون عن ايمانهم سيكونون هدفاً للاستهزاء. ثم ان التربية المعاصرة وعلم النفس والفلسفة والمدنية، جميعها تخلق لدى الناس طباعاً تتمركز حول الانسان، وتخلق حسّا كاذباً بخلاص النفس.

ينّمون الاكتفاء بالذات ، حب الذات، التمركز حول الذات، وكل هذه الامـــور مـــضادة لروح التوبة والاعتراف. فمثلاً يشدد لدى بعض الانظمةمثل الماركسية على ان حالة الخطيئة تتعلـــق بالاوضاع الخاطئة وليس بالاشخاص. وهكذا ينقلون موضوع المسؤولية الشخصية من الاشخاص الى الحالات (الاوضاع). وعندئذ الانسان يميل لكي يعتبر ذاته غير مسؤول عن أي شر يحدث. وأيـــضاً بحسب نظرة فرويد، الخطيئة ليست اتمام الشهوات الشريرة للانسان بل هي عدم اتمامها.

وايضاً تظهر الخطيئة اليوم على انها حق للانسان وتحرر له، كما هو في موضوع الاجهـــاض فالاجهاض هو اشنع خطيئة. ولكننا نرى النساء يتظاهرن في الشوارع ويطالبن بالجريمة كأنها تحرر لهن ويصحن: "جسدنا هو لنا، لا نريد جسداً مسيحياً". فتصوروا كيف انقلبت الامور واصبحت الجريمة تحرراً للانسان، بينما هي اسوأ عبودية له.

فكيف الان، الاولاد الذين يستقون من التلفزيون والراديو والفيديو الخ. . . من هذا الـــروح المريض ، روح الانانية وحب الذات، كيف سيستطيعون ان يدخلوا في روح الكنيسة المعاكس كلياً؟

تنمو ايضاً نفسية الجماعة على حساب الشخص والمسؤولية الذاتية، المبالغة في استعمال كلمة كتلـــة، جماعة، وما ينتج عنها (فمثلاً رياضة جماعية، مسابقات جماعية)، لكي تتهيأ مجموعة اشخاص، ويبتلع الشخص داخل الجماعة، فالانسان المنتمي الى هذه الجماعة لا يفكر ولا يقرر ولا يفعل شيئاً لوحـــده لذلك فهو لا يشعر انه مسؤول شخصياً، آخرون يوجهونه. وفضلاً عن ذلـــك فـــان الجـــو العـــام واستعراض الفساد يضعف الضمير الاخلاقي. فالاطفال عندما يرون ما يرونه منذ صغرهم، يـــضعف ضميرهم ، ولا يعودون يرون الشر على انه شر او بقدر ما هو شر. ولهذا السبب وبألم نلمس تفاقم الجرائم وبالاخص الجرائم ضد حياة الانسان، فالجرائد تعلن يومياً عن جرائم رهيبة. وبعد ان يـــصبح موضوع الاجهاض شرعياً سوف تتزايد الجرائم اكثر. والدولة اذا تبنت هذا الامر فهـــي ستـــشير الى الاستهانة بحياة الانسان الذى سيتكون ، فهو انسان. والشباب الذي يقتبل اليوم هذه التربيـــة وهـــذا

التوجيه ويرتكب الجرائم في حوادث الاجهاض الن يرتكب الجرائم ضد الانسان الاخر فيما بعد، عندما ستضطره انانيته الى ذلك؟

صعوبة اخرى يواجهها الشباب في اقترابهم من الكنيسة، وهي ضعف الرعية، وعلى الاخص الرعايا الكبيرة التي تعد حالياً بآلاف الاعضاء. فبدلاً منم ان تظهر انها الجماعة الكنسية ومصدر الابتهاج، فيذهب احدهم الى الرعية ويشعر بالابتهاج باجتماع رعيته ويقول ان اسرته هي هنا، اسرة الله، هنا بيت الله وبيت ابيه، هنا نحن اعضاء جسد المسيح، اعضاء أخوية المسيح ومجتمعه، هذا الكاهن هو ابي الروحي ولكي استطيع ان اشترك في اجتماع شعب الله الداعي للمسرة ، ينبغي الا انفصل عن الله ولا عن الكنيسة بسبب الخطيئة. واذا ما اخطأت استطيع بسهولة ان اذهب الى الكاهن ، الى ابي الروحي لاقول له خطيئتي وهو سيغفر لي، وانا سأتمكن من الاشتراك في اجتماع أخوية المسيح وعائلتنا التي هي رعيتي وان اشترك في الاسرار المقدسة.

كانت ليتورجيا الكنيسة كاجتماع شكري للشعب وكتحقيق فعلي لشركة جسد المسيح امراً واضحاً في الكنيسة الاولى. لذلك فقد كان يوجد الاعتراف العلني للخطايا امام الاسقف الذي كان يمنح الغفران من الله كمسؤول عن الكنيسة المحلية. وبعد الاعتراف والحل العلنيين، كان يتمكن التائبون من العودة الى جسد المسيح ومناولة الاسرار الالهية.

إن تحسن أوضاع الرعية كنسياً وشكرياً سيساعد الشباب في العودة الى الكنيسة والارتباط بسر الاعتراف.

سؤال:

على أي شئ نستطيع أن نعتمد، وما هي العلامات الملموسة التي يمكنها أن تساعدنا لكي يقترب الشباب من سر الاعتراف؟

اعتقد انها تكمن في تقصي المشاكل المؤلمة الكائنة لديهم. الشباب اليوم منذ صغرهم لا يعيشون حياة تقليدية ما خلا بعض الحالات الشاذة. فهم يعيشون حياة عالمية واكتسبوا خبرات متقدمة في الشر. وأغلب هذه الخبرات يائسة. فبعد تجارب كثيرة وتطلعات واحباطات تولدت في داخلهم مرارة. فمنذ اللحظة التي يبدؤون فيها بالاحساس بهذه المرارة قد يلتقي بهم اللاهوتي أو الكاهن أو الانسان المسيحي ويقول لهم: "انظر يا أخي، كل ما قد اختبرته هو يأس وفشل، ولكن يوجد شئ لم تختبره، وهذا يستطيع ان يمنحك الفرح الحقيقي".

لدينا الكثير من الامثلة عن شبان بعد أن يئسوا في كل شئ توجهوا نحو المسيح كحل أخير ووحيد لهم. فكثير من الشبان ادمنوا على المخدرات وكانوا من عائلات عريقة، قالوا لي: "ايها الاب لم نتعاطى المخدرات لاننا متشردون بل لاننا يئسنا من كل شئ واردنا مخرجاً".

فالشيطان يضلهم، ويعتقدون انهم سيجدون في المخدرات ذاك العمق الذي تتوق اليه النفس البشرية. شئ اخر يستطيع الشباب ان يفهمه في خبرته، وهو ان كل خطيئة هي في العمق انانية اي انها مريضة، وهي محبة انانية لذواتنا. وان انانيتنا تقود الانسان الى الوحدة والمأزق (عدم وجود المخرج).

لا يستطيع الانسان بواسطة الانانية ان يستعيد شركة حقيقية مع الله ومع أخيه الانسان، وفي النهاية سيعيش في وحدة لا تطاق. الذين هم في الجحيم يعيشون انعدام وجود شركة فيما بينهم ، وذلك على حسب الاجابة التي نطقت بها جمجمة كاهن وثني، عندما سألها القديس مكاريوس الكبير كيف يعيشون في الجحيم، قالت انه لا يستطيع احد ان يرى الاخر. بينما نحن في الكنيسة يستطيع احدنا ان يرى الاخر في المسيح.

الانسان بما انه مخلوق على صورة الله فهو كائن لاهوتي ولا يوجد حكم ذاتي يستطيع ان يقدم له ما يكمله أو يقنعه أو يريحه في اعماق نفسه الا اذا عاد الى صورته الاصلية التي هي المسيح. الانسان في الكنيسة يستطيع ان يحقق شخصيته في شركة مع الله ومع الناس، وان يصل الى اقصى امكانية لوجوده وهي التأله. الكنيسة تقدم له الامكانية ليصبح انساناً حقيقياً.

الله والكنيسة يحبان الانسان كما هو، وفي كثير من الاحيان عندما يتخلى عن اهله أيضاً. فالكنيسة تقبل الانسان مهما يكن خاطئاً، وكما هو، طبعاً لكي تقدم له المقدرة لكي يصبح كما يريده الله. وكم يساعده هذا القبول. . . وكلنا يعرف محبة الاباء القديسين للانسان في البرية. وحتى اليوم نرى آباء الجبل المقدس المتميزين بالحكمة فبينما هم قساة على انفسهم يظهرون محبة قصوة للناس وفهما للانسان الساقط وللطبيعة البشرية المريضة والفاسدة. ونرى ايضاً جرأتهم ومعونتهم التي يظهرونها للانسان لكي يجذبونه من حيث هو، من جحيمه الداخلي، ويقودونه نحو الله بكثير من المحبة والتمييز. في الكنيسة توجد امكانية خبرة الله السرية. فالانسان لا يستطيع ان يرتاح بعلاقة خارجية فقط مع الله. فهو مجبول ليكون مغرماً بالله. فالعشق الالهي، كما يقول الاباء، هو حاجة في طبيعة الانسان. لذلك فعلاقة المحبة مع الله هي التي ستريح الانسان في النهاية. وهذه العلاقة الحبية والحياة السرية وخبرة الله تتغذى من الحياة السرية والصلاة بلا انقطاع وكل الحياة النسكية العملية في الكنيسة الاورثوذكسية التي يقدمها لنا الاباء القديسون والفيلوكاليا.

نعمة المسيح تقدم خبرات سماوية لاولئك الذين يجاهدون حسناً. وهكذا لسنا بحاجة ان نطلب خبرات اخرى في امكنة اخرى ونتألم باطلاً. كانت هذه بعض الامكانيات والعلامات الحسية التي يمكننا ان نتكلم عنها فيما يختص بأعماق نفوس أبنائنا، في نواة وجودهم، اضطرابهم، وتطلباتهم، ودوما بموقف ايجابي بدافع المحبة والحنان تجاههم.

طبعاً، من اجل كل هذا نحن بحاجة الى معلمين مستنيرين، آباء روحيين موهوبين. لذلك علينا ان نطلب من الله ان يمنحنا اياهم. فهؤلاء هم نور العالم.

القديس سمعان اللاهوتي الحديث

لمحة عن حياته:

ولد هذا القديس من ابوين غنيين هما باسيليوس وثيوفاني، هذان ارسلاه وهو صغير الى القسطنطينية لكي يتعلم عند اقرباء لهم وضعوا له استاذاً لتعليمه وهؤلاء كانوا مقربين لدى الامبراطور.

كان القديس سمعان منذ نعومة اظفاره عاقلاً يكره مشاغبات الاطفال، يدرس جيداً، وتقدم في الدراسة وصار يكتب بخط جميل. واهتم عمه به كثيراً وعرّفه على الملك الذي اوكل اليه منصباً هاماً. ولكنه خاف ان يفقد الله عندما يربح امور العالم ، وجاء موت عمه تدبيراً الهياً. فصار يتردد على دير ستوذيتو وعلى ابيه الروحي سمعان الشيخ ذو الفضائل العظيمة. كان يتوسل الى ابيه الروحي ان يقبله في الدير وكان عمره انذاك ١٤ سنة، فقال له ابوه انه عليه ان يصبر حتى يكبر ايضاً . اخذ منه كتاب مرقس الناسك وقرأ فيه العبارة التالية "اذا اردت ان تنتفع اهتم بضميرك، وافعل ما يقوله لك". لذلك صار ينصرف الى الصلاة والمطالعة باستمرار.

ومرة وفيما هو يصلي رأى نورا من السماء، انار المكان واناره هو ايضاً، فشعر بالفرح والدموع الحارة وأخذ يصرخ يا رب ارحم. ورأى في السماء سحابة بدون شكل محدد ممتلئة من مجد الله ومن ناحيتها اليمنى رأى ابه الروحي سمعان يقف وينظر بثبات نحو النور. ثم عاد الى ابيه وقص عليه الرؤية. وطلب من جديد ان يقبله في الدير، فلم يسمح له الا بعد ٦ سنوات، حيث اراد ان يذهب الى مدينته لقضاء حاجة وعندما ذهب ليودع اباه سمعان قال له: الان حان الاوان لتأتي الى الدير. فذهب اولا الى مدينته وقضى حاجته. وهناك قرأ ايضاً العبارة : "عدم الحس هو موت النفس

وموت الذهن قبل الموت الجسدي". فأخذ يشدد أكثر على نفسه مجاهداً كي يشفيه الله من عدم الحس. ثم انتسب الى الدير وصار راهباً مجاهداً، ثم رئيساً للدير. وقد كان يعتبر اباه سمعان قديساً وكرمه كثيراً. انشأ ديراً اخر واهتم برهبان كثيرين.

وقبل موته تنبأ انه سيظهر للرهبان بعد دفنه وقد تحققت نبوءته وظهر فيما بينهم وتناول معهم القرابين المقدسة.

حالة آدم قبل السقوط:

عندما جبل الله الانسان الاول خلقه قديساً عديم الهوى وبلا خطية، على صورته ومثاله ولكن بما ان صفة الثبات وعدم التغيير هي للالوهة فقط لذلك فقد خلق الانسان قابلاً للتغيير والتحول ، ولكنه كان يستطيع بقوة الله الا يتغير. وبما انه كان قديساً لم يكن محتاجاً لناموس لان الناموس يقول ان نعمل الخير والا نعمل الشر، اما الله فقد رأى ان كل الخليقة هي حسنة لذلك لم يكن الانسان محتاجاً للناموس. وكان تحت سلطانه ان يأكل من كل اشجار الفردوس ومن شجرة الحياة ايضاً ، ولكن لم يسمح له ان يأكل من شجرة واحدة وذلك لكي يعرف انه قابل للتحول والتغيير، ولكي يخجل ويبقى في حالته تلك الحسنة جداً بأن يحفظ هذه الوصية.

وعندما قال الله أنه عندما يأكل من تلك الشجرة موتا يموت جعله يعرف انه قابل للتغيير والتحول. ففي ذلك الحين لم يكن محتاجاً الى ناموس طبيعي أو مكتوب أو روحي. ولكنه بعد أن أكل وابتعد عن الله وأخذ الشر يتغلغل في طبيعة الانسان صار محتاجاً الى ناموس يدله ما هو الخير وما هو الشر. وظهر الناموس المكتوب.

خطيئة آدم وخطايانا نحن:

آدم كان يعيش في الراحة والفرح والكمال ولا يحتاج لاي شئ. فخطيئته لم تكت بسبب ضعف أو حاجة بل كانت بسبب عدم شكر وعدم حفظه لوصية الله وضلالة شيطانية، ولكن الله منحه مكاناًللتوبة "الله لعن الارض والعالمكله مع الانسان لكي يجد الانسان فيه مكاناً للتوبة وصارت الاحزان والآلام والجوع والعطش والالم والحر والبرد نتائج السقوط، التي على الانسان ان يتحملها بفرح وشكر ، لكي يصير الموت له راحة منها ولكنه اذا تذمر وطلب التخلص منها، فانه يرتكب

عندئذ خطاياه الخاصة، التي يضيفها الى حالته الشقية، ولن يجد الراحة منها هنا ولا بعد الموت". وذلك لسببين:

أولاً: لانه سقط بسبب تضليل الشيطان له وليس من ارادته.

ثانياً: لانه كان يلبس جسداً وبعد السقوط صار هذا الجسد قابلاً للتغييرات والتأثيرات الخارجية وبسبب جسده هذا الذي تغير بعد السقوط وصار ضعيفاً مريضاً فانه صار يرتكب خطايا. وبالتالي صار مضطراً لان يندفع نحو الله طالباً منه المسامحة على ما يخطئه والقوة كي لا يرتكب خطايا اخرى. ويضطر ان يشكر الله بعد ان ينجيه ويغفر له.

أما نحن فلا يمكن لاحد منا ان يخطئ مثل آدم لانه ليس لاحد منا طبيعة آدم العديمة التغيير والعديمة الضعف. ولكننا نحن بدل ان نشكر الله ونحتمل بصبر نتائج ضعف اجسادنا ونتائج السقوط التي هي تأديبات للطبيعة البشرية، فان الانسان لا يقبل بها بشكر ويريد ان يجد راحة منها. ولذلك فهو يسعى للطمع وكثرة الاموال والظلموسلب الاخرين ولكنه لا يجد الراحة. وهذه هي خطايانا نحن.

الأحزان والتجارب:

من الضروري على كل مسيحي تقي ان يمر بالاحزان والتجارب لكي يكون نشيطاً في شكره لله، لانه عندما يدخل في التجارب ويعرفها ويتألم ثم يتحرر منها يشكر الله بحرارة . اما غير المختبر فهو كسول في الشكر لله الذي يحفظه من التجربة لذلك فمن الضروري على كل مسيحي ان يمر في التجارب والاحزان والضيقات، لكي يعرف قوة الله ويشكره من كل نفسه ومن كل قوته. اما الذي يبقى في راحة من التجارب فهذا معرض لخطر اثنين من الشرور الكبرى وهما:

١) انه لا يشكر الله من كل نفسه ومن كل قلبه.

٢) ان ذهنه سينشغل بأمور باطلة وغير نافعة.

وآدم لو كان يشكر الله من كل نفسه لما تعرض للضلالة ولما رغب في ان يصير الها ولما سقط. ولذلك فان حاجتنا لشكر الله هي مثل حاجتنا للهواء، اذا كنا لا نريد ان نسقط في التجارب والاحزان.

الهدف من وجودنا:

على المسيحي الا يظن انه ولد لكي يتمتع بالحياة في هذا العالم. لو كان الامر هكذا لما مات الانسان. ولكن الانسان يولد اولا لكي يصير كائناً من حيث لم يكن. وثانياً لكي ينمو في قامته الروحية شيئاً فشيئاً كما ينمو في قامته الجسدية شيئاً فشيئاً. وبواسطة الجهاد في الفضائل ، يصل الى تلك الحالة المقدسة التي يتكلم عنها الرسول بولس: "لكي نصل الى الانسان الكامل الى ملء قامة المسيح". وثالثاً لكي يستأهل السكنى في المساكن السماوية ويعيش في مكان الصديقين ويرنم معهم تسبيحة النصر للثالوث الاقدس.

لقد ولدنا كي نوجد مستحقين لله عندما نموت. والمستحق لله هو المستقيم والمحق والوديع والصالح والشفوق والرحوم والمتحنن والحسن والطويل الاناة والعديم الشر والمحب البشر، ومثل هذا الانسان لا يمكن ان يصبح هكذا بدون النعمة الالهية وذلك بالايمان بالمسيح.

الغاية من الجهادات:

حالة الانسان التي ينبغي ان يكون فيها هي: المحبة الفرح السلام طول الاناة الصلاح الخيرية الايمان الوداعة والامساك. ويعود الانسان الى حالته هذه بتجسد المسيح وليس باية وسيلة اخرى أو تعب وجهاد. . .

فكل الجهادات الكثيرة او المطالعات الكثيرة او الشقاء والتعب والجوع والعطش والسهر، هذه الاتعاب ستكون كلها باطلة اذ لم يفهم الانسان السر العظيم، سر تجسد المسيح، فقد قلنا ان الناموس المكتوب ظهر بعد السقوط وذلك بسبب حاجة الانسان للتمييز بين الخير والشر. ولكن عندما ظهر المسيح وأَتَحَدَ الطبيعة البشرية بالالهية اتحاداً فائقاً، لم يعد الناموس المكتوب لازماً، لان النعمة الالهية التي للمسيح يسوع صارت تثمر في الانسان ثمار المحبة والفرح والسلام وطول الاناة والصلاح والخير والايمان والوداعة والامساك. والذي ليس فيه ثمار الروح القدس هذه، ليس للمسيح. وكل جهاد الانسان وسعيه ينبغي ان يكون من اجل اكتساب روح المسيح، وهكذا يثمر ثمار الروح القدس. اذ بتجسد المسيح عاد الانسان الى حالته الاولى، وليس باتعابه ومطالعاته وشقائه وجهاداته فهذه الاتعاب تتم ليس من اجل العودة الى الصورة الاصلية والحالة الاولى بل من اجل الحفاظ على هذه الحالة التي حصلنا عليها بواسطة المعمودية المقدسة. لان هذا الكنز يحرس بصعوبة كما يقول الاباء.

ففي الدينونة سيحاسب الانسان المسيحي ليس اذا كان قد ترك العالم من اجل المسيح، او اذا وزع غناه على الفقراء او اذا صام وسهر وصلى وبكى كثيراً، او اذا فعل امرا صالحاً اخر في هذه الحياة، بل سيحاسب فيما اذا كان قد تشبه الى درجة ما بالمسيح، مثل ابن لابيه. والتشبه بالمسيح هو

باكتساب الحقيقة والوداعة والعدل ، ومعهما التواضع ومحبة البشر. فالحقيقة هي في جميع الاقـــوال، والوداعة في جميع الردود، فالوديع يبقى غير متأثر امام المدائح وامام الشتائم على الـــسواء ، فهـــو لا يتكبر بالمدائح ولا يحزن من اجل الشتائم.

أما العدالة فهي في جميع الاعمال، فكما اننا نميز الاثقال بواسطة الميزان ، هكذا لن نحيد عن العدالة اذا لم نتعد وصايا المسيح ربنا. والتواضع هو مثل كنز لا يفسد محفوظ في الذهن، يعلـــم انـــه بفضل قوة النعمة التي حصل عليها من المسيح يملك هذه الصفات اي الحقيقة والوداعة والعدالة. امـــا محبة البشر فهي التشبه بالله الذي يحسن على كل البشر المؤمنين وغير المؤمنين، الصالحين والاشـــرار. ومن يملك هذه الصفات، هذا قد تشبه بالمسيح مثل ابن يتشبه بابيه.

الحس:

كل انسان خاطئ هو مريض نفسياً، وهو متكبر وعديم الحس ولا يشعر بالالام التي تـــسببها له الخطيئة، وبمقدار عدم حسه يستكبر اكثر فاكثر وكما يشعر الانسان بالامور الظاهرة والحـــسية ، ويعرف متى يُظلم ومتى يُحسن اليه، ويشعر بجميع الامراض والاوضاع مثل الشيخوخة والبرد والحـــر والسعادة والتعاسة. . . هكذا على كل مسيحي ان يرى ويشعر عقلياً انه مريض في نفسه او انـــه في حالة صحة، انه تعيس او سعيد انه يتعذب ظلماً او عدلاً. لانه اذا لم يشعر بهذا كله في ذهنـــه فهـــو مسيحي باطلاً. فهو يدعي مسيحياً ولكنه ليس هكذا في الحقيقة .

لأن الحس ورؤية الامور يدلان على الحياة لا الموت. وبما ان الانسان مخلوق مـــن طبيعـــتين جسدية وعقلانية فهو يحتاج للشفاء من الناحيتين بسبب مرضه الذي صار اليه بعد السقوط. فالمرض ليس الا انعدام للصحة. ونتيجة ايماننا نحن المسيحيين هي صحة النفس. وعلامة صحة النفس تقـــويم الحواس الخمس: النظر، السمع، الذوق، الشم، اللمس.

والذين تقومت حواسهم هؤلاء فقط هم امناء على الايمان الالهي بالمسيح. ولهذا تجسد المسيح كي تحصل النفس على صحتها. ولا تدخل ملكوت السموات الا النفوس الصحيحة. ان نطلب مـــن الله مغفرة الخطايا بالصلوات والدموع هذا شئ حسن، ولكن لم يفيد اذا لم تطلب الشفاء من المرض الكائن في طبيعتنا والذي يدفعنا لهذه الخطايا لاننا سنكون مثل من يبني ويهدم.

وأمراض النفس هي : عدم المحبة، الحسد، الشتم، الادانة، الاحتقـــار، الكـــذب، الغـــضب، الشهوة، امور العالم، المجد الباطل، الطمع، التفوق على الاخـــرين في الحكمـــة والـــشجاعة والمجـــد والكرامة، عدم المسامحة وكل عمل صالح مهما يكن، اذا لم يهدف الى صحة النفس فهو باطل.

الخطيئة:

كل خطيئة تتم بارادة الانسان وبدون ارادته. بارادة الانسان لانه ينظر الامر نظـــرة شـــهوة ويميل ذهنه الى الخطيئة، وبدون ارادته لان الشيطان الذي يكون مختبئاً خلف الخطيئـــة وينظـــر ميـــل الانسان اليها يندفع نحوه ويجبره على ارتكابها وذلك بسرعة مثل لمح البصر.

لذلك فان المسيح كان في وصاياه يقطع اسباب الشهوة يمنع النظر بشهوة ، ويجب علينا ان نبتعد عن الشيطان لكي لا يجبرنا على ارتكاب الخطيئة. وهذا الابتعاد لا يتم الا بعد اشتهاء الخطيئـــة وذلـــك بالمسيح يسوع.

خاتمة:

ماذا يطلب المسيح من المسيحي؟

١) ان يعترف بخطاياه القديمة لكي يتذكرها في كل وقت ويكون ذهنه متواضعاً ولا يحتقر غيره.

٢) ان يعترف ويطلب من الله ان يغفر له خطاياه التي يرتكبها كل يوم بارادته او بدون ارادتـــه بمعرفة او بغير معرفة.

٣) بما ان الخطيئة تتم بسبب ضعف الذهن لذلك ينبغي ان يطلب من الله ان يمنحهقـــوة ذهنيـــة وهي نعمة المسيح السرية لكي ترى النفس الشر على انه شر والصلاح على انه صلاح.

وبذلك نستطيع ان نعبر فخاخ الشرير. لان الذي يعرف الهوى يشعر به ، والذي يشعر به يتألم. والذي يتألم يطلب الشفاء ويسعى جاهداً من اجل الشفاء. لو كان الانسان في حالة الـــصحة اولاً ثم مرض لعرف مرضه، ولكن بما انه يولد مريضاً لذلك فمن الصعب ان يعرف ما هي الصحة. والنفس المريضة باستمرار تتعذب بسبب الغضب والشهوة اللتان هما جامعتان لكل الاهواء الاخرى ، فهي لا ترى الشيطان الجالس بجانبها بواسطة هذه الاهواء.

التواضع المقدس:

اذا انصرف الانسان بكليته للاهتمامات والمشاغل العالمية التي هي الغنى والمجد والتنعم وغيرها من الامور العالمية التي يظنها الناس مجيدة ولامعة، فانه بمقدار ما يؤخذ ذهنه بها يصير اكثـــر قـــساوة وسماكة، ويطيش شيئاً فشيئاً ويظلم اكثر فاكثر، ويصير في حالة جهل ونسيان لوصايا الله.

لذلك فان داوود عندما اخطأ وصار في هذه الحالة كان يتضرع الى الله قائلاً: "أنـــر عـــيني لأتفهم عجائب ناموسك". هكذا عليك انت ايضاً ان تفعل وتطلب من الله من كل نفسك ان ينيرك، وعندما ستنفتح عيناك سترى اولاً نفسك وتعرف حالتك، وعندئذ سترى الجميع مثل قديسين وافضل

منك. ليس فقط الاتقياء والفضلاء بل كل انسان صغيراً كان ام كبيراً، صدّيقاً ام خاطئاً، وحتى الذين يخطئون علناً، وليكن هذا الامر علامة لك ان خطاياك قد غفرت، لان التواضع المقدس هكذا يتم، فالنعمة تمنح الانسان اولاً ان يرى انه لا يوجد بين جميع الناس انسان خاطئ او حقير اكثر منه، وبحس نفسي كامل يشعر انه هو الخاطئ الوحيد وهو وحده المزمع ان يذهب الى الجحيم.

لذلك يا بني ، اسع جاهداً ان تقتني هذا التواضع ولا تقل انه مستحيل او انه يناسب الرهبان وليس الذين في العالم. فالمسيح اعطى الوصايا للجميع و لم يميز بين وصايا للرهبان ووصايا لاهل العالم. وحتى الذين عاشوا قبل المسيح استطاعوا ان يحققوا هذه الوصايا، فاسمع أيوب الذي يقول: انا ارض وتراب. واسمع داوود الذي قال انا دودة لا انسان.

تمثل بتوبة داوود فتصل الى تواضعه. لانه بالتوبة تتبدد سحابة الجهل التي تظلل الذهن. وعندما ينكشف الذهن عندئذ نعرف ذواتنا ما هي، ونرى جروح انفسنا وادناسها . وعند ذاك لا نتصرف فقط ونتكلم بتواضع بل اننا نخجل حتى من الشمس والنجوم وكل خلائق الله التي تكونت من اجلنا نحن الذين اغضبنا الله الذي خلقها من اجلنا بينما نحن احتقرنا وصاياه جميعها. ولا نجرؤ ان نرفع اعيننا لكي ننظر او نعتبر انفسنا مستحقين ان نأكل من ثمار الارض، بل اننا نحكم على انفسنا بانه عدل ان نموت جوعاً وعطشاً، ولا نستطيع ان ننظر الى ايقونة المسيح وايقونات قديسيه نحن المدنسون والخطأة بل يتهيأ لنا ان الايقونات المقدسة تشمئز منا ومن اعمالنا . لذلك لا نجرؤ ان نقترب منها ونقبلها. وعندما نزمع ان ندخل هيكل الله يمتلكنا خوف وكأننا داخولن بغير استحقاق ونخشى ان تنفتح ارض الكنيسة ونتزل احياء الى الجحيم. وهذا وكثير غيره ما يعلمنا اياه التواضع المقدس. وهذا التواضع المقدس يعلمنا ايضاً اننا لا نستطيع ان نتعلم شيئاً صالحاً بدون معلم والا نقترب من الله بدون وسيط ومرشد.